

## بحث واقع المدارس

### الفلسطينية

(ورقة بحثية تأملية)

معتصم أطرش

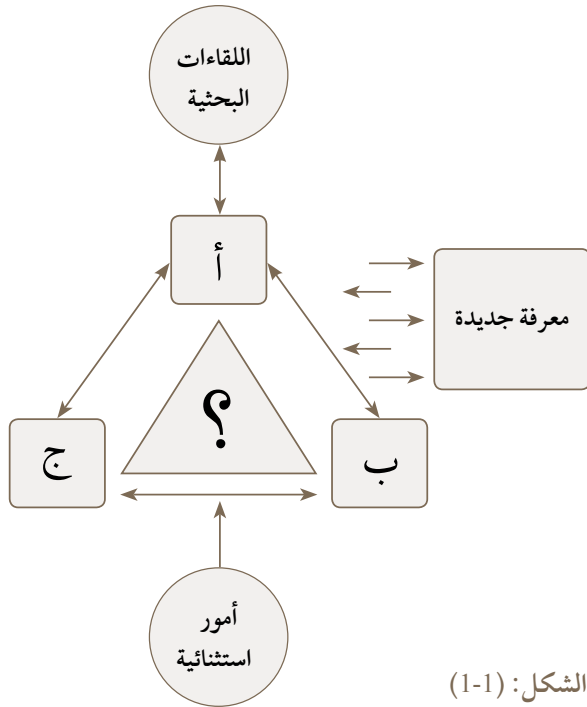
عندما كنت صغيراً لم أتعلم في الروضة، لسبب بسيط، لم يكن لجيلنا في ذلك الوقت روضة. في قريتي الصغيرة لم تتابع شؤوني الصغيرة مربية متخصصة، لم تنصب لنا ألعاب الأطفال، ولم يكن لنا مرسوم أو ملعب أو عجينة أو ألوان. كانت أشجار اللوز العابي وأرجوحتي، والبيدر والحقول ملعبي، وكومة رمل في حارتنا وضعت لبناء أحد البيوت كانت مرسمي، بقليل من الماء كنت أحوّل الرمل كما العجين أبني به سياق قصتي المتخيلة. أحمل سيفاً قطعته من شجرة الرمان، وامططي صهوة جوادي وأجوب الحقول مختبئاً بين سنابل القمح لأهاجم رؤوس الخرفيش الطويلة والمهزومة في معارك كنت المنتصر فيها دائماً. يمكنني أن أتحدث دون توقف عن الطابون وخبزه، وسراج المساء وسحره، وعن الأغنام التي لم نعلمها النظام، لكنها كانت عندما تعود مع الراعي مساءً، تدخل كل شاة إلى بيت أصحابها دون توجيه إلا من بعض قليلات الخبرة والتجربة.

مضت السنوات وكبرت، وأخذت معالم القرية تتغير، وبدأ فضاء حريتي وألعابي يضيق، وكلما كبرت صارت المدرسة أصعب، والمسؤوليات أعظم، والحريات أقل... كنت بعد المدرسة أهرب إلى عالمي ومكاني لاستكمال قصتي أو معركتي مع رؤوس الخرفيش التي نالت حريتها لانشغالي في المدرسة، وكانت تهتز مستهزئة بي، وأنا أحمل حقيبة المدرسة ماراً من الطريق. لم أعد ألعب كما كنت، وحتى ميدان المعركة اختفى وأصبح معبداً ونظيفاً، ومكثت في تلك الصفوف الباردة، حيث كنت أجلس قبل أكثر من خمس وعشرين سنة، وما زال ذلك التلميذ الصغير يعيش داخلي إلى اليوم، حيث أراه في كل صف أدخله، ما زال جالساً متمسراً خلف مقعده الخشبي لم يتحرر، وما زلت حتى اليوم أحاول تحريره بتحريره من يجلسون اليوم مكانه...

### ■ أنا المعلم

أبدأ ورقتي البحثية بكلمة أنا، وذلك لرغبتني في الانطلاق من الذات. فقد كنت مركز البحث ونقطة الانطلاق إلى كل مواضيعه، انطلق من الذات وأعود إليها، وأبني معرفتي الجديدة خلال النقاش الذي يدور بين المعلم والباحث في داخلي منذ اللحظة الأولى التي بدأت أفكر فيها بطبيعة البحث وأهدافه، وكيف؟ ولماذا؟ فلو كنت باحثاً ولم أكن معلماً، أعتقد أنه لن يأخذ هذا العمق الذي

أعنيه، ذلك لأن قصة البحث هي قصتي، وحركتي خلال البحث كانت بين ثلاثية تتحاور في داخلي، وتشكل وتنتقل بين المحاور الثلاثة، ويكون تركزها أحياناً على ضلع أكثر من الآخر، وكأنه مثلث متساوي الأضلاع، رأسه مدرسة البحث، وزوايا القاعدة معرفتي وواقعي، وهي حركة تتفاعل مع محور رابع هو اللقاءات والتحليلات والخبرات الأخرى من فريق البحث، وأمور استثنائية خاصة لا تتوفر كثيراً في العلاقة بين معلم ومدرسة - وربما أستطيع بهذا التقسيم توضيحها أكثر (انظر، الشكل: 1-1):



الشكل: (1-1)

- أ. مدرسة البحث.  
 ب. معرفتي وخبرتي الذاتية وكل ما أحمله من تجربة وفهم.  
 ج. واقع المعلم الذي أعيشه يوميا في مدرستي وممارساتي اليومية.
- كيف ستكون هذه الحركة؟  
 وما مدى تداخلها وتأثيرها؟  
 وماذا أضاف عملي إلى البحث على كل واحدة منها؟  
 كيف تطورت معرفتي؟  
 وبالتالي كيف أثرت في واقعي؟  
 ثم كيف حملت ذلك إلى مدرسة البحث؟  
 وماذا كانت النتائج؟  
 سأحاول في هذه الورقة الإجابة عن بعض هذه التساؤلات وغيرها،  
 موضوعاً كيف كنت باحثاً وأنا المعلم.

المقارنة بينها وبين ما سأشاهده في البحث وفي عينة الدراسة؛ فمثلاً، المعلمون الذين أعرفهم، والمدير، والطلاب، وأنا نفسي، وأولياء الأمور، والمدرسة التي أعمل فيها بشكل عام ... كلها نماذج ستكون حاضرة في ذهني كلما رأيت شيئاً فتقفر للمقابلة والمقارنة ... فعلا إنها مهمة ليست بالسهلة، والأصعب من ذلك أن هناك نموذجاً ثالثاً وهو النموذج المتكون في داخلي، وهو خبرتي ومعرفتي التي بنيت وتشكلت عبر فترة من التجريب وممارسة في الواقع، ومحاولاتي وسعيي إلى تطوير قدراتي وتكوني المهني.

### ■ نقطة الانطلاق ... تأملات في الطريق

قبل بدء العمل على البحث كانت لدي معلومات عن المدرسة عينة الدراسة، كونها في قرية قريبة من قريتي، وفي مدرستي معلم انتقل منها حديثاً، وكان يحدثني عن هيئتها التدريسية، ويزودني بمعلومات ليست كثيرة، إلا أنها بنت لدي تصوراً بأنها مدرسة نموذجية، والنموذجية هنا تعني أنها تضم هيئة تدريسية مخرمة، لهم خبرة طويلة في التأسيس، وطلابها من المتفوقين تحصيلياً.

وقد وصفها ولي أمر في المقابلة لاحقاً: «يعني أنا بلا حظ إنه المدرسين الموجودين هان يعني أصحاب كفاءات عالية وتجربة طويلة، وصار لهم سنين مثل الأخ ... والأخ ... بتصور المدير برضو صار إلو مش أقل من ثلاثين سنة تدريس، أو خمس وعشرين سنة، ففي عندهم كفاءة».

### ■ المعلم الباحث والباحث المعلم ... تأملات وانطباعات

دور المدرسة كلمة كبيرة، تثير تساؤلات أكبر تجعلني أدرك خطورة ما أتحدث عنه وأهميته وأهمية ما يمكن أن ينتج من إجابات حول هذه التساؤلات عن دور المدرسة، وممارسات كل من له علاقة بها من قريب أو بعيد، ومعتقداتهم، وأدوارهم ... كيف تفهم؟ وكيف تطبق؟ وكيف يتم التفاعل بين كل الأطراف؟ هل دور المدرسة منسجم مع الحياة أم أن هناك فجوة كبيرة بين ما يتعلمه الطالب في المدرسة وبين ما يواجهه في الحياة؟ كيف سيكون دوري؟ وهل سأتمكن من الوقوف على الحيات من كل الأمور التي ستمر معي في البحث؟ هل سيتفهم الكل دوري، وبخاصة المعلمين الذين سأقابلهم وأشاهد حصصهم؟ ما مدى تأثير كوني معلماً على البحث، فأنا قادم من مدرسة لها ممارساتها ولها همومها ومشاكلها وإيجابياتها وسلبياتها ولي خبرة في هذا السياق؟ ... كيف سأهرب من المقارنة بين دوري في مدرستي ودور المعلمين في مدرسة البحث؟ والمقارنة بين مدرستي ومدرسة البحث؟

هذه الأسئلة وغيرها كانت تطاردني قبل انطلاقي في البحث وتوجهي إلى المدرسة عينة الدراسة، وكوني معلماً وقادماً من مدرسة مشابهة -كما قلت- فإن ذلك أثار عندي الكثير من الهواجس والمخاوف، لأنني أحمل الكثير من النماذج التي أخشى أن تدخلني في أتون

يقول معلم من المدرسة: «أنت أضح عزيز، وأنت إنسان مبدع، أنا لاحظت هذا الكلام، وأنا يعني يعرف الناس. من خلال كتاباتك من خلال حديثك، من خلال المسرحيات التي كنت تقوم بها، أنت عملت مسرحيات أنا ما بنسأش دير بالك» (مقابلة المعلم).

وكنت أفكر هل يا ترى ستكون مدرسة نموذجية فعلاً؟ ما سر نجاح هذه المدرسة وسمعتها الطيبة؟ أعتقد أنني سأتعلم الكثير من هذه المدرسة ودورها. وهل معرفتي عن المدرسة النموذجية صحيحة؟ متى تكون المدرسة ناجحة؟ ما الذي نريده من المدرسة؟ ماذا عن دور المدرسة وفعاليتها؟ هل هو دور حقيقي ينتج تغييراً، أم هو دور شكلي هائم على وجهه وغير منتج؟ هل الناجحون هم من أنتجهم دور المدرسة وسياساتها وممارساتها؟ من أين تعلم الأطفال أفضل ما تعلموه؟ وهل ما تعلموه في الحياة هو ضمن أجندة المدرسة وأهدافها؟

## ■ أخني الكبير ... تأملات في واقع مدرستي التي أعمل فيها معلماً

وعلى الهامش، كانت خبرتي بواقع مدرستي حاضرة بروتينها اليومي ومهامتي كمعلم داخلها، حيث أنطلق إليها كل صباح من بيتي القريب والقريب جداً، حيث لا يستغرقني الوصول إليها أكثر من دقائق ثلاث ماشياً باسترخاء ارتشف فنجان القهوة الذي أعدده في البيت، وهي مدرسة أساسية مختلطة من الصف الأول إلى التاسع الأساسي، وعدد طلابها لا يتجاوز 133 طالباً وطالبة، تقع على طرف القرية في الجزء القديم منها قرب المسجد، تطل كل نافذتها الغربية على مقبرة القرية القريبة جداً، ومن نافذة غرفة المعلمين ترى بوضوح شجرة صنوبر صغيرة وقريبة تحتها قبر أبي ومعلمي. بعد وصولي، يقرع

بكل الأسئلة التي تحدثت عنها سابقاً، ومعرفتي المتوفرة عن المدرسة، حملت جهاز التسجيل وكاميرا التصوير ونماذج المشاهدات والمقابلات وتوجهت إلى المدرسة لأبدأ البحث. أعمال على الطريق قطعت خط المواصلات المقطوع أصلاً، فاضطرت للمشي مسافة طويلة، ما أتاح لي فرصة للتفكير كيف سيكون اللقاء الأول؟ رتبت في عقلي كيف سأقدم نفسي، وكيف سأبدأ الكلام، وكنت أفكر أنني في مشكلة، فلو قدمت نفسي بحزم سأكون قريباً من المشرف، وسأعطي انطباعاً لا أريده، ولو قدمت نفسي بخجل طالباً المساعدة ربما سيهملون طلبي، ولن يبذلوا جهداً لمساعدتي، فلديهم الكثير من الالتزامات والأعمال، ولا ينقصهم المزيد من التوضيحات في العمل.

ربما ... ولكن ما يطمئن أنني أعرف بعض المعلمين في هذه المدرسة منذ زمن، وهم من كبار السن والهادئين، ويمكن أن يساعدوني في تقديم نفسي وتنفيذ مهمتي (وهكذا كان). فكانوا مستعدين للمساعدة وتسهيل مهمتي، وقابلوني بكل احترام ومودة، وكانوا دائماً يشعرونني بالقبول والإطراء والحرص على راحتي، ومنهم من كان معلماً منذ زمن طويل حين كنت طالباً صغيراً. اليوم، وفي مدرسة البحث، يعد القهوة ويشاركني شربها، ويطمئن على راحتي في المدرسة، ويسألني إن كنت بحاجة إلى شيء، مظهراً لي كل الاحترام والثقة بما أقوم به. ولكن، ومع محاولتي أن أظهر بصورة لا تؤثر على واقع المدرسة، إلا أنه كان لدى بعض المعلمين عني انطباع وتصور مسبق، كذلك كوني أعمل على بحث، ومن خلال مؤسسة، ومعني إذن من الوزارة وضعني في موقف يسترعي الاهتمام من البعض، وعدم الاكتراث من البعض الآخر، ممن كانت لهم تجارب سابقة مع الأبحاث؛ إما قلقاً من وجودي وإما عدم قناعة بجدوى ما أقوم به، وإما ربما خجلاً عند بعض المعلمات من مشاركة هذا الغريب الحديث أو التواصل معه وفهم ما يقوم به.



من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».

الجرس ويبدأ معه الروتين اليومي: طابور، وإذاعة مدرسية، مع الحرص على سماع السلام الوطني، والاحتفاظ بمشاركات الطلاب في ملف الإذاعة المدرسية، وهو أحد الملفات التي يسأل عنها المدير من قبل الرقابة الإدارية.

بشكل عام، في مدرستي أعتقد أن لي حضوراً مختلفاً عن الزملاء فيها، ربما لبعض الأسباب، منها: إنني ابن هذه القرية، وأعرف كل الطلاب وأبائهم وأجدادهم حتى، وتربطني بهم علاقات طيبة. المدرسة - كما قلت - قريبة من بيتي واهتمامي بها يمكن أن يكون في أي وقت، فهي تقريباً جزء من بيتي مثلاً: كنت أسمع صوت المياه تفيض من خزان المدرسة ليلاً في ساعة متأخرة، فأذهب إلى المدرسة لحل المشكلة. تقريباً أنا من المعلمين القدامى في المدرسة، اثنتي عشر سنة عشت فيها، ومر عليّ فيها الكثير من المعلمين، تعلمت في صفوفها القديمة نفسها المرحلة الابتدائية، ونشأت في غرفها التي الآن أعلم فيها، وكان والدي واحداً من المعلمين الثلاثة الذين كانوا يعملون فيها.

يساعدني المدير دائماً، ويقدم لي الدعم والمساندة، وأنا أحاول تقديم المساعدة قدر الإمكان في أي موضوع، بغض النظر إن كانت أموراً إدارية مثل تعبئة الجداول المدرسية على الحاسوب، أو طباعة الشهادات بأشكالها، أو الكتب والمراسلات، كذلك تقديم المشورة للمدير فيما يتعلق بالطلاب والأهل، ومتابعة بعض القضايا مع الأهل في القرية، فالمدير من قرية مجاورة. يحترمني الزملاء والطلاب كثيراً كما أعتقد، وتربطني بهم علاقات قوية. بسبب الأشياء التي ذكرت، أعتقد أن معلم مدرسة مثلي في مدرسة كهذه هو حالة نادرة، وليست عامة، فالعطيات تشير إلى واقع معلم ومدرسة وعلاقة مختلفة بينهما عن الكثير من المعلمين، حتى المعلمون الموجودون في المدرسة نفسها، وذلك بحكم التاريخ والجغرافيا والخبرة والعلاقات، كما أوضحت سابقاً، وهذا يشير إلى أن واقعي ومدرستي مختلف تماماً عن أي مدرسة. ليس لأن مدرستي مختلفة، أو أنني معلم مختلف، بل لأن العلاقة بيني وبين المدرسة مختلفة، أفصد أن الاختلاف بيني وبين الكثير من المعلمين هو علاقتي الخاصة بالمدرسة، واختلاف مدرستي عن المدارس الأخرى هو وجودي كمعلم بهذا التاريخ الذي أحمله فيها، والقرب الجغرافي منها، وكأننا نشأنا معاً كطفلين أو كأخوين وهي الأخ الكبير.

## ■ عودة إلى الماضي... من أنا وما هو دوري؟

سأعود إلى بداية العلاقة بيني وبين المدرسة. كيف تشكلت؟ وكيف بنيت وتطورت منذ انخراطي في مهنة التعليم، محاولاً توضيح كيف كنت أفكر، وكيف كانت معرفتي الذاتية؟ وكيف تطورت فيما

بعد؟ عل ذلك يوضح تنقلي بين الذاتية والواقع، وكيف يمكن أن يؤثر ذلك في البحث.. المعلم الباحث أو الباحث المعلم؟ عشت مستويات مختلفة، ونقلني البحث في طريقة تفكيري نقلات متفاوتة، وكنت أصل إلى محطات متتابعة لم استغرب بعضها، بينما كان بعضها الآخر يفاجئني، وكنت في البحث كل شيء، كنت الباحث، والمبحوث، كنت المعلم والطالب، كنت المدير والأذن وولي الأمر... نعم، كنت كل هؤلاء في مناطق مختلفة، أحاول أن أفهم كيف يفكرون، ولماذا يفكرون هكذا، أحاول أن أفسر ممارساتهم ونقاشاتهم وتحليلاتهم ورأيهم من الأشياء، بعض هذه الأدوار عشته حقيقة، وكنت أحمله معي، وبعضها كنت أعرفه من تجارب سابقة، أحاول فهم المزيد عنه وتحليله.

فمنذ أن انخرطت في مهنة التعليم العام 1998، كنت (أعرف) دوري جيداً كمعلم، أو على الأقل هكذا اعتقدت، كما أنني كنت أعرف دور الطالب ودور المدرسة أيضاً... معرفة لم تتكون عندي فجأة عندما أصبحت معلماً، بل كانت امتداداً مذ كنت في دور الطالب... الطالب الذي غاب عن المدرسة أربع سنوات فقط، وعاد في دور جديد ومختلف... أصبحت الآن المعلم، وأفهم دوري جيداً كما فهمته من معلمي الذي هو الآن زميلي يؤكد على ما تعلمته: هيئة المعلم فوق كل شيء... يجب أن يحسب الطالب حساباً للمعلم... شد على الطلاب... دائماً اجعل بينك وبين الطالب حاجزاً... هذه أمانة... أنت وضميرك... اهتم بدقتي التحضير... استخدم الوسائل... المهم التأسيس القراءة والكتابة والحساب، ولن تقلق بعدها على الطالب... وكنت كلما جمعنتي مناسبة بأحد من كبار السن المجريين يسرد عليّ القصة نفسها، التي سمعتها مرات ومرات ومرات: إنه في زمانهم كانوا إذا ما أحسوا بقدوم المعلم من طرف الشارع كانوا يتسابقون إلى الهرب خوفاً منه، دون أن يراهم، وقيل أن ينتهوا من لعبتهم في الحارة عصرًا، أو مساءً، أو أي وقت كان يمر فيه المعلم.

ما أحمله من إرث ثقيل كهذا وخبرة معلمي، وما تعلمته في كليتي، وما تدرت عليه في مدارس الوكالة خلال السنوات الأربع، يدفعني إلى حب والدي الذي علم في المدرسة التي عينت فيها، وكان مديرها لأكثر من عشرين سنة، ثم تقاعد، فكنت كمن يكمل عن والده مسيرته، ويتسلم مهنته ومكانه ومكانته، قلت له مرة أن اسمك لم يغيب عن سجلات المدرسة، فقط أضيف أمامه اسم صغير هو اسمي، ولم يلبث أن توفي وترك لي ميراثاً كبيراً وحماً ثقيلًا زاد من إحساسي وإصراري على النجاح.

هكذا بدأت العمل وكنت أفكر... لا بد أن أنهي جميع وحدات الكتاب، وفي نهاية كل وحدة يجب أن يكون هناك امتحان، سأعمل الكثير من الوسائل، سأهتم بدقتي التحضير، فعليه علامة عالية في زيارة المشرف، سأنظم أوراقتي، وأجعل لها ملفاً جميلاً ومرتباً، سأعمل

اللوحات .. و.. و.. و.. وكنت أعود للمدرسة بعد الدوام أرسم على جدران الصف وأزينه بالألوان، واللوحات، والخط الجميل، لقد أحدثت تغييراً نوعاً ما أحببني طلابي وأحببتهم ... على الرغم من أنني كنت أفكر بدفتر التحضير والامتحانات والوحدات والملفات واللوحات أكثر منهم، كنت أرى هذه الأشياء أكثر منهم على الرغم من أنها كانت لهم. مرت سنوات وتكررت التجربة وبدأت الصورة تتضح نوعاً ما، فسألت نفسي ما الذي أحققه من نتائج؟ لقد أعجب المشرف بعملتي كثيراً، وأرسلني مدرباً في الورش للمعلمين على الرغم من حداثة سني في التعليم، والمدير كان يمدح عملي كثيراً، والمعلمون كانوا يستغيرون ما أبذل من طاقة ويبدون إعجابهم وشكرهم لعملي ... لكن بالنسبة لي لم أكن مرتاحاً. شيء ما ينقصني، هناك حلقة مفقودة، طلابي لا يستمرون بالحماس نفسه وحب المدرسة والشغف بها بعد أن أتوقف عن تدريسهم. ما الذي يجب أن أقدمه لهم؟ أليس كل ما أقدمه فيه فائدة؟ إذا ما هو دوري الحقيقي؟ كيف أكون معلماً ناجحاً؟ هل فعلاً دوري هو كما علمني معلمي وزميلي؟

### ■ خطتي تنهار ...

هنا بدأ التغيير، فالإحساس بالمشكلة هو أول خطوة على طريق الحل، وبدأت خطتي التي وضعتها بالتفكير، لم أعد مهتماً بدفتر التحضير، ولم أعد مكرتراً بوجود حاجز بيني وبين الطالب، أو أن أصمم وسيلة تعليمية تعجب المشرف فيرسلني إلى ورشة جديدة، صار يشغلني سؤال واحد ... ماذا يمكن أن أقدم لطلابي زيادة على تعليمهم القراءة والكتابة؟ وكيف أهتم بهم وأقدم لهم ما يستحقون غير دفتر التحضير وامتحان آخر كل وحدة؟ ولأنني لم أعد أفكر كيف سأرضي المشرف، ما عاد عملي يعجبه، وحتى لا أظلمه يعجبه ما أقول من أفكار، وما أقوم به من مشاريع مع طلابي إن سمع عنها، لكن المهم أن التزم بدفتر التحضير والامتحانات. سأعود إلى المشرف لاحقاً، ولكن أريد القول إنني وحتى هذه اللحظة وأنا أكتب ما زلت أفكر وأبحث عما يمكنني تقديمه وكيف أكون معلماً ناجحاً؟ وما هو دوري؟ وكيف أساعد طلابي؟ فليست هناك -برأيي- طريقة معينة أو أسلوب واحد أو خطة مقدسة يتسلمها المعلم من مشرفه، فيسير عليها ثلاثين سنة ونيف .

لقد بدأت أفكر كباحث قبل عملي على هذا البحث بزمان طويل، أبحث لأفهم دوري ودور مدرستي وزملائي وطلابي، وما زلت. حتى إنني أحاول فهم ما كنت أقوم به من دور وأنا طالب، لأنني وأنا معلم، وكلما دخلت الصف -وهو الصف نفسه الذي درست فيه وأنا طالب صغير- يلاحقني هذا السؤال: هل كان اختلاف الأدوار لي وللمعلم وقتها عما كانت عليه كان سيجعل مني الآن معلماً مختلفاً أو على الأقل أفهم دوري الآن كمعلم؟ لقد كنت أمتلك الكثير لأقدمه، وبحاجة لأتعلم عن أشياء كثيرة. لم يتح لي دوري كطالب وقتها

القيام بذلك، ولم أحظ بقدر مناسب من الاهتمام، غير أنني كنت الأول على الصف أحياناً، وأحياناً منافسي الذي ما زلت أرى فيه منافسي إلى اليوم. (ولم أجد إجابة حتى هذه اللحظة) إذاً ... كنت قبل مشاركتي في البحث باحثاً كثير الأسئلة وكثير التفكير والمقارنة، ولا أخفي أنني كنت أمقت خطتي السابقة وأعتقد أنها لم تكن مناسبة، لأنها لم تبني انطلاقاً من حاجات الطالب، وإنما من حاجات المشرف والمعلم والنظام السائد.

لست ضد التحضير، فالتهيئة -برأيي- مهم في كل الأمور، لن أخوض في موضوع الامتحانات وهل هي ضرورية وجوهية أم لا، ولكن ما أريد قوله إنه ليس لدي مشكلة مع التحضير والتهيئة والامتحان إذا ما كانت فعالة ولها أهدافها. مشكلتي هي كيف نتعامل مع هذه الأمور، وآلية تنفيذها والهدف منها. ولكن مع ذلك لا أعتقد أنني لم أحقق نجاحاً، أو أنني كنت أسير في حلقة مفرغة، وأن الأمور كانت خاطئة بالملء، ولكن أفكر أنه كان يمكنني أن أقدم أفضل مما قدمت. وهذا التحول الذي أتحدث عنه لم يكن في حلم راودني ليلة ما وذهبت صباحاً إلى المدرسة بعقلية جديدة، بل جاء في سياق طويل من البحث والتفكير والتعلم والتجريب، وتفكيرى بطريقة إنسانية، واعتباري أن مهنة التعليم هي مهنة إنسانية مرتبطة بالحياة والحب أكثر من ارتباطها بالامتحان ودفتر التحضير. وبدا هذا التحول تقريباً عندما شاركت في ورشة المسرح، وهي أول ورشة أشارك فيها تكون مختلفة عن أسلوب الورش والدورات العادية مع المعلمين، فكان موضوعها مختلفاً وبعيداً عن المنهاج، وكان حول المسرح وتدريبات تخصص المسرح في هذه الورشة. وجدت ما كنت أبحث عنه، وبدأت أعمل مع طلابي في التدريب على المسرح وإنتاج المسرحيات، وبدا يتكون لدى طلابي واقع جديد تمتع وقوي ومؤثر، جعلهم يحبون المدرسة أكثر، ويشاركون في مسابقات المسرح التي تعقدتها التربية، ويحصلون على المرتبة الثانية لسنتين على التوالي، ويعرضون مسرحياتهم في المدرسة والمناسبات المحلية، ويشاركون أهل الأسرى مناسباتهم، وكانت لهم وقفة مع أسر الشهداء ومع المعاقين في يوم المعاق، وفي أعمالهم أبكوا الناس وأضحكواهم، وشعروا أنهم يحملون رسالة وقضايا إنسانية لم يقرؤوها في الكتاب المقرر فقط، بل حملوها للناس، وجعلوها حية وتنبوها فأصبحت جزءاً من حياتهم ومعتقداتهم، وانعكس ذلك على دافعيتهم وحبهم للمعلم والمدرسة، وكانوا أكثر من مجموعة، بحيث كان ينضم للمجموعة مشاركون جدد يتعلمون من السابقين لهم، وكانت هذه السنوات من أجمل السنوات في المدرسة بالنسبة لي وطلابي.

ومع ذلك، لم أهمل تعليمهم القراءة والكتابة، وحتى اليوم ما زالوا يشاهدون أنفسهم وهم يمثلون في أعمالهم المسرحية المسجلة، وبعض البنات اللواتي شاركن معي في العمل، وكن يتراكن حولي وقتها بكل براءة الطفولة هن الآن أمهات يرعين أطفالهن، وكلما التقيت

بهن لا أستطيع أن أعبر عن مدى الامتنان والشكر الذي يقدمه وتفكيرهن بجمال وأهمية وقدرية ما كن يقمن به.

ثم بعد فترة قرأت عن ورشة سيعقدتها مركز القطان في جرش، وهي حول الدراما، فشدني الموضوع الذي كنت أحبه، وهو الدراما، ووقفت في المشاركة للسنة الأولى. كانت تجربة غنية وجديدة وميزة، وأسلوباً لم أتعرف عليه يوماً في حياتي، ثم تطورت لتصبح مدرسة صيفية سنوية في ثلاث سنوات، أتمت السنوات الثلاث، وقدمت خلالها متطلبات المدرسة، وطبقت الكثير من الحصص بالأسلوب الذي تعلمته مع طلابي، داومت أيام العطل وبعد العصر ووجدت مدى تأثير ما أقوم به على طلابي، شاركت في منتديات الدراما التي تعقد بشكل دوري امتداداً لهذه المدرسة، وعرضت تجاربي، والتقيت بالكثير من المعلمين والمعلمات، وتبادلت الكثير من التجربة والخبرة، دربت المعلمين في هذا المجال، وقدمت بعض المحاضرات في الجامعات، ووجدت نفسي أطور مهنيًا، ويتطور معي إحساس بضرورة تغيير كل أساليب القديمة، لأنني رأيت أثر ما أقوم به على طلابي، وكيف تغيروا بأشكال عدة، أهمها أنهم أصبحوا ينتظرون قدومي على باب الصف فرحين، ويتذمرون إذا قرع الجرس وانتهت الحصة.

إنهم يحبون المدرسة، وأستطيع أن أروي عشرات القصص عن هذه التجربة مع طلابي، وانعكاس تحولي وتغيير أسلوب علي الطلاب، ولا أنسى يوماً أن أحد الصفوف التي درستها، وفي الحصة الأخيرة من كتاب اللغة العربية للعام الدراسي، كانت آخر حصة لي عندهم، بعدها سيتقدمون للامتحانات، ويترفعون للصف الخامس، أول الحصة قلت لهم إنها آخر حصة لي معهم، فانزعجوا وتأثروا، ولن أنسى ما

حييت كيف بكت بعض الطالبات حين عرفن أنني لن أدرسهن بعد اليوم، لماذا قد يبكي طفل أو طفلة لأن معلمه سوف يتوقف عن تدريسه؟ ولماذا أرى في عيونهم حين أمر عن نافذة الصف الخامس خطاباً يرجوني أن أعود إلى صفهم وأدرسهن، أو يبذن رغبة في العودة إلى الصف الرابع، وفي كل يوم يمكنني أن أحس وأرى أشياء كثيرة تدل على رضا الطلاب عن أدائي كمعلم، وبالتالي رضائي عن أدائي، ولكن لا يمكنني أن أسجل كل لحظة، أو أذكر كل تصرف، أو رد كل كلمة من طلابي، وليس هناك وصف دقيق لهذا الإحساس يمكنني أن أدرجه تحت مسمى معين، غير أنه إحساس بأن الأطفال لا يخفون عني شيئاً، هم صريحون، والكثير من إيماءاتهم وتصرفاتهم وأفكارهم تنبئني بحبهم واتمائهم لتعلمهم ومعلمهم. إنها لغة سهلة، أتواصل بها مع طلبتي بكل بساطة يؤمنون بحبي لهم، وحرصتي عليهم، ومنحهم الحرية، وبالتالي يردون بالطريقة نفسها. لأنهم يدركون أنني أحاول أن أجعلهم في المرتبة الأولى من الاهتمامات، وإن إحساسهم ورأيهم أهم عندي من أي علامات أو امتحانات أو التزامات.

وأنا مؤمن بأن هناك الكثير من المؤشرات التي تدل على نجاح المعلم وطلابه، مؤشرات لا يمكن تقييمها في جدول علامات أو تقرير سنوي، إنها ممارسة يمكننا فقط أن ندركها حين نعيشها. طالب من الصف الثالث الأساسي جاءني مرة يبكي، كانت أول أيام السنة الدراسية، ولم أعلمه سوى يومين فقط، اشتكى من ألم في بطنه بحرقة، حاولت أن أخفف عنه، وطلبت منه أن يذهب إلى بيته وهو قريب من المدرسة يشرب شيئاً دافئاً ويرتاح، ثم يعود إلى المدرسة حين يشعر بتحسن، قال لي ودموعه تنهمر على وجهه، وأنفه يسيل بصوت يصاحبه البكاء: «بدش أروح علينا هلقيت حصة عربي». لقد أشعرتني أنه



من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».

على الرغم من الألم فإنه لا يريد أن يخسر المشاركة في حصتي، لم أعرف ماذا أفعل، ورجبت في احتضانه، وشعرت أن مسؤوليتي تكبر، وأنتي مهما فعلت لن أعطي هؤلاء ما يستحقون. وتساءلت: أي تقييم يمكنه أن يرصد هذه العلاقة بين المعلم والطالب؟ وما هي المعايير التي أنتجت مثل هذه الدافعية؟ كيف أقيم أداء طالب كهذا؟ أي علامة سترصد موقفه وشجاعته؟ وأي تقرير سيرصد أداء معلم يؤثر في طلابه؟

## ■ الباحث الواعظ ...

كنت في بداية البحث وكأنتي أنظر من مكان بعيد، أراقب الأشياء بتحفظ لأنني كنت أحمل فكرة أنني سأكون حيادياً، ولن أتدخل، لذا، وحين كتبت أول كلماتي في البحث، كانت بلغة الواعظ الذي يحمل بيد قوة الباحث الذي يرصد الأشياء ويحللها، ويحمل في اليد الأخرى دواء يعالج ما رصد من أخطاء ومفاتيح لحل المضلات. يدور في ذهنه أنه لو كان كذا لكان أفضل، ولو كان كذا لكان كذا.... وهذا امتداد لرحلة طويلة في المدرسة والمجتمع والبيئة بشكل عام.

هكذا نشأنا في المدرسة على أسلوب العقاب والثواب، والتنافس، وحب الذات، فتعودنا أن نحبي معرفتنا لا أن نشاركها الآخرين، ولم نتعلم أن رأبي صواب يحتمل الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب، وأنتي إذا أثبت خطأ غيري لا يعني بالضرورة أنني على صواب، وحتى وأنا معلم ما زلت أجد هذه القضية، وأرى أنه من يملك السلطة يمتلك القوة، ويكون هو صاحب المعرفة والرأي الأنفع، وكل من يملك القرار يكون واعظاً! وهذه السلطة والقوة منحني إياها البحث.

أعرف الكثير من النظريات، ولكن التطبيق ليس معرفة، إنه ممارسة للأشياء والأفكار تمتد عبر زمن طويل، أحاول أن أتغير، وهذا البحث ساعدني كثيراً جداً على أن أترك رأبي وما تعلمت جانباً، ولو لفترة بسيطة، وأفتح أذني وعقلي للأخر أولاً، وأحاول أن أسمع وأفهم وجهة نظره، وأتعلم منه، وأثناء ذلك أكون بجهد محاولاً منع رأبي من الخضور والتسرب عبر الشقوق كالماء. على الأقل لو تسرب داخلي، علي أن لا أجعله يصل إلى لساني. علي تأجيل رأبي لاحقاً وتحويله إلى مقارنة وتحليل، لا إلى تعصب وتقديس، تعلمت في هذا البحث كيف أكون مخطئاً!

## ■ الباحث المساعد ...

بعد متابعة العمل تقربت أكثر من عالم المدرسة عينة البحث، وبعد لقاءاتي مع فريق البحث أصبحت أشعر أن البحث لي، وانتبهت أن الوضع الذي نبخته هو عالمي وحياتي، هو شيء يخصني حتى لو كان

معلماً آخر، أو مدرسة أخرى، أو طالباً غير طلابي، إنه السياق الذي يثملنا جميعاً فعدت إلى البحث وإلى الميدان متعاطفاً... نزعني عني ومني صفة الباحث الواعظ، وكنت هذه المرة الباحث المساعد... علي أن أساعد الآخرين وأساعد نفسي.

في هذه المرحلة بدأ يتنامى عندي شعور الخوف من البحث، فكيف سأوازن بين ما أرى أنه لن يعجب المبحوث لو رأى نتائج البحث، وبين تعاطفي مع المبحوث والعلاقة الطيبة التي نشأت بيننا، وفكرته أن هذا البحث من أجل التطوير لا من أجل تصيد الأخطاء.

معلم من مدرسة البحث يقول: «المعلم بحاجة إلى مساعدة من الجميع، يعني أرجو أن توصل هذه الكلمة. بحاجة إلى وقفة من الجميع، بحاجة إلى احترام، بحاجة إلى أن نبقي عليه صاحب سمعة طيبة، السمعة الطيبة مهمة جداً، يعني عملنا ممكن ما نستفيد منه مادياً، مش تجار إحنا، ولكن على الأقل نحافظ على سمعة المعلم حتى من قبل الزملاء» (مقابلة المعلم). وكانت هذه المرحلة من أصعب مراحل البحث بالنسبة لي كلما فكرت في هذه النقطة تحديداً.

## ■ الباحث .. الباحث ...

أشعر الآن، وفي هذه المرحلة النهائية من البحث، أنني ازدت فضولاً وتعطشاً للبحث أكثر، ربما لأنني خضت تجربة البحث التي هيأت لي فرصة النظر إلى نفسي وعملي كمعلم. وأنا أف في المكان لا يمكنني رؤية التفاصيل من حولي بدقة، ما فعله البحث أنه ابتعد بي قليلاً، فكنت مثل الرسام الذي يرسم لوحة جدارية، ابتعد عنها ليشاهد كيف تكون الصورة كاملة بعد انشغاله في التفاصيل الدقيقة، وهذا جعلني أفكر وأسأل وأتساءل أكثر عن العمل الذي أقوم به، ودقته، والأهداف التي أسعى إلى تحقيقها. أوجد البحث عندي بعض الإجابات، ولكنه بالمقابل تركني أمام كم هائل من الأسئلة، أوجد في داخلي آلة لقفذ الأسئلة كألة تدريب لعبة التنس التي ترمي الكرات بقوة وسرعة، ووقفت مقابلاً لها. بعض الأسئلة أحاول ردها، وربما بعضها الآخر يصيبني في مكان ما فيؤلمني، وكأنتي لا أعرف رداً لهذا السؤال، أو أعرف رداً ولكن تفكيرني فيه يكون مخيفاً ومقلقاً كحضور السيل.

## ■ حضور السيل ...

على مدخل المدرسة جلست في أحد الأيام خلال زيارتي لمدرسة البحث، وكان ظهري للباب الرئيسي، وذلك في آخر الدوام. قرع الجرس، وانطلق الطلاب إلى بيوتهم مسرعين وأصواتهم تملأ المكان، وبدأوا بالخروج من الباب الرئيسي منحدرين على درج أمامي يرون من خلفي وينزلون الدرج. كان منظراً مهيباً، كلهم من المرحلة

الأساسية، وأشكالهم متشابهة ومنسجمون في الخروج كأنهم هاربون من شيء ما. في تلك اللحظة تخيلتهم سيلاً جارفاً، لهم حضورهم وقوتهم، وفكرت: ماذا لو التقت كل هذه السيول المتدفقة من كل مدارسنا؟ بالفعل سيكون نهراً هادراً، وبعد عقدين من الزمن سيتسلم هذا النهر كل شيء، سيكون هو المجتمع، وهو القوة المؤثرة فيه. وهم الآن يتسابقون كأنهم هاربون. ماذا لو أحدثنا عندهم التغيير وهم الآن أطفال، عقدان من الزمن ليسا فترة طويلة. إذا النهوض والتطور مسألة ليست صعبة، والتغيير لا يحتاج لفترة طويلة. توقف تدفق السيل إلا من بعض القطرات التي ما زالت تتهدى خارجة من الباب، وقطع تفكيري معلم يقدم لي فنجان القهوة، شربت قهوتي، ولم يزل منظر السيل يشغلني وأفكر ما هو مستقبل هذه الأجيال؟ هل نقدم لهم ما يستحقون؟ وإلى أين نأخذهم؟ وإلى أين سيأخذوننا حين يتسلمون السلطة؟

## ■ باحث ... ومعلم: ماذا أضاف البحث لكل منهما؟

لقد كانت مشاركتي في البحث كمعلم فرصة لأراقب نفسي، وكأنني ابتعدت عن نفسي لأنظر إليها من بعيد، أو كأنني أشاهد فيلماً عن أدائي وتفكيري ودوري. كنت أشاهد معلماً في الحصة، وأثناء ذلك كنت أشاهد نفسي في داخلي، وأفكر بكل ما أقوم به، وكيف يمكن أن أطور نفسي أكثر وأكثر، ولو كنت مكان هذا المعلم ماذا كنت سأصنع؟ ولو كان هذا المعلم مكاني كيف سيكون تحصيل طلابي؟ هل سيكونون أقوى في التحصيل؟ أفضل في القراءة والكتابة مثلاً؟ كنت أسائل نفسي طوال الوقت، وعشت التجربة بعمق، ولا أستغرب لأنه كان في داخلي باحث ومعلم؛ الباحث يسأل المعلم، والمعلم يساعد الباحث على فهم أعمق لكل ما يشاهده. مرة يتفان ومرة يختلفان، وهذا حوار داخلي كان يدور في مشاهدة حصة:

حين كنت منشغلاً بأخذ الملاحظات بدقة لتحليلها فيما بعد، لأن ذلك من متطلبات البحث والتفكير بأدائي ودقة تسجيلي ومهمتي الطويلة والصعبة، وما الذي سيعجب فريق البحث من معلومة جديدة، وخاصة، ومتميزة أقلها لهم من هذه الحصة، كنت أيضاً منشغلاً بالمقابلة بعد الحصة، وكيف سأديرها بطريقة ناجحة وبوقت مناسب يتقبله المعلم، وفي الوقت نفسه كنت متدمراً ومزعجاً بكثرة الأسئلة التي أطرحها داخلي، وتفسير كل إيحاءة من الطلاب وجلساتهم، وحركة المعلم، وأسلوبه، وكنت أشعر بالملل، وأدعي أنني لو تسلمت الصف في هذه اللحظة سأعمل شيئاً مختلفاً تماماً، فالطلاب يشعرون بالملل، وليسوا منسجمين، لا بد من طريقة ما لشد انتباههم.

قلت: المعلم يستخدم وسيلة تعليمية، لقد استخدم جهاز عرض

الشفافيات، وهذه اللوحات والبطاقات، ورأيت أوراق الامتحانات في وقت سابق، علامات طلابه مرتفعة، وربما كانت أفضل من علامات طلابي، ودفتر تحضيره جاهز، ما الذي يجعلني أعتقد أن طلابي أفضل من طلابه؟ سؤال صعب. ولكن ... طلابي أكثر حيوية، أكثر أسئلة، وأكثر اهتماماً، وأكثر حرية، وأكثر حياً للحصة. ولكن هل طلابي بهذه الحيوية والاهتمام دائماً وفي كل حصة؟ جعلني هذا السؤال المفاجئ أتوقف عن التفكير لحظة. لأنني فعلاً لا يمكنني القول إن حصصي ناجحة وقوية وفعالة كما أريد. قررت أن لا أتسرع وأنظر معتبراً هذه الحصة، وإن لم تعجبني، إحدى الحصص التي أفنذها، ولا أكون راضياً عنها، سأصبر وأسأل المعلم عن الحصة في المقابلة، لأعرف إن كان راضياً عنها أم لا؟ وما هي أسباب رضاء عنها؟ وبعد ذلك يمكنني فهم الموضوع أكثر وأفكر فيه لاحقاً.

هكذا كان يدور الحوار كأنه بين باحث ومعلم. المعلم الذي يمتلك الخبرة والتجربة وله واقعه، والباحث قليل الممارسة في البحث (والجديد على الصنعة). ففي كل مشاهدة، وفي كل مقابلة، كان يدور بينهما نقاش طويل لا يتوقف بتوقف المقابلة أو المشاهدة. أسأل نفسي عن كل شيء، وعن رأيي في كل ما يحدث. كانت خبرتي كمعلم تجعلني أفهم الموضوع بعمق أكثر، وتحليل أدق، وقد أثر ذلك عليّ في البداية كمعلم، حيث كنت متدمراً، وأنظر إلى الأمور بحسب معرفتي السابقة، وكأنني ربما كنت متعصباً لفكرة ما، أو أسلوب ما، ولكنني حين أدركت أن هذه الخبرة يجب أن تكون في البحث أمراً إيجابياً مساعداً، أحسست بالمسؤولية، وخشيت أن تؤثر آرائتي الشخصية في البحث، فبدأت بتغيير أسلوب، وأصبحت أكثر صمتاً في داخلي أحاول أن أفهم ما يحدث، وتوقفت عن المقارنة، وصرت قبل أن أحجب عن تساؤل أفكر جيداً خوفاً من التأثير سلباً على ما أدونه أو أحلله، وصرت أقتش عن شيء إيجابي فيما أراه، وأنظر إلى النصف المليء من الكأس، لأنني شعرت بأنني أصبحت محبطاً بما أراه، وأنني أرى الأمور كارثية، فحاولت أن أبدأ بالإيجابيات في كل استفسار أحجب عنه نفسي، وذلك أفادني كثيراً، وجعلني أتعلم الكثير عن الباحث وصره ودقته وعدم تسرعه. وشعرت أنه لا يمكنني القول إن أسلوبه هو الأمثل، وعدت إلى مدرستي شاعراً أنني أحمل مسؤولية كبيرة، وأنه يجب أن أبحث دائماً عن الأفضل، وتطوير مهارتي وأسلوبه. والشيء الجميل والرائع والصعب في الوقت نفسه هو أن أسلوب البحث صار يلاحقني في كل مكان، وفي كل وقت، انتهى عملي كباحث معلم على هذا البحث، ولكن عملي كمعلم باحث في مدرستي لم ينته، لن يتركني البحث الذي كشف خلال العمل على البحث كل أوراقي كمعلم، وفكرت في دوري وأسلوب، ولا يمكنني التراجع الآن. لقد عدت مع بداية هذه السنة متحمساً لمشاهدة حصصي والبحث فيها. تطاردني أسئلة البحث كالنحل حول أسلوبه ودوري وأدائي وعلاقتي بالمدرسة والطلاب والمنهاج والامتحانات ... مع إدراكي أنه لا يمكنني أن نكون مثاليين، يمكنني



أن أستفيد من تجربتي في البحث وأوظفها، وأنا واثق من أن المعلم والباحث في داخلي سيتوصلان إلى تفاهم مشترك وتعاون دائم.

## ■ في مدرسة البحث ...

سأحدث الآن عن بعض التأملات من خلال البحث وأشياء رصدتها من واقع مدرسة البحث، لا أهدف من خلالها إلى توجيه البوصلة إلى اتجاه معين، وليس القصد تصنيفها بالخطأ والصواب، إنما هي دراسة للواقع، وتأملاتي حول ما رصدت:

### جفاف ...

والجفاف بأنواع ومستويات من الناحية الخارجية والبنية التحتية والوسائل المتوفرة، ومن ناحية المهمة والدور الذي وجد لأجله هذا المكان، والعلاقة بين كل الأفراد المقيمين فيه والعملية التعليمية التعلمية بشكل عام. وحتى يكون كلامي واضحاً أكثر، لا أقصد بكلمة الجفاف تحديداً: القلة، وبخاصة حين أتحدث عن جفاف التعليم، بل أقصد به أكثر: خشونته، وبعده عن المتعة، وقربه من الرسمية والجدية، وتركزه على المادة الدراسية والكتاب المقرر والامتحان ومن مستوياته:

### جفاف المكان:

المدرسة على ممر للمدارس، ومن أمامها معبر لمدرستين ثانوية وأساسية في موقع شديد الانحدار، تلتقط أنفاسك إذا ما وصلت على أول طريق المدرسة. أمام المدرسة ساحة مسفلتة هي ملعب ومنتفس لكل طلاب المدرسة، تفصل هذه الساحة عن ساحة مدرسة البنات الأساسية، صف من الغرف القديمة أولها غرفة المدير، وآخرها غرفة

المعلمين، وبينهما صف، وهذه الغرف تقع بين ساحتين من الأمام ساحة الطلاب، ومن الخلف ساحة البنات. وهذه البناية منفصلة عن مبنى من طابقين، فيه الصفوف الدراسية، وفي آخر الطابق الثاني غرفة المصادر. لا توجد فيها مكتبة ولا مختبر ولا غرفة حاسوب ولا حديقة مدرسية أو قاعة للرياضة، فهي عبارة عن ساحة وغرف دراسية يبعث تصميمها على الرهبة والإحساس بالجفاف.

في بناية الطلاب في الطابق الأرضي للصفوف الدنيا دخلت بعض الغرف وهي مزينة وجميلة وجدرانها مزينة بخراطيش الطلاب، على طرفها تصعد بيت الدرج إلى الطابق العلوي، وتحت الدرج مطبخ المدرسة ومقر الأذن. وخير ما يصف لنا هذا الجفاف حديث الطلاب ببراءتهم، هم أقدر على وصف الواقع حقيقة، ويبدو عليهم بوضوح التأثير بالجفاف، وكأنهم آلات، حاولت بكل جهد أن أكسر حديثهم عن مثالية الأمور، وترديدهم للكلام الرسمي، وأن أحاطب فيهم طفولتهم:

« الباحث: بتحبوا المدرسة؟

« الطلاب: نعم.

« الباحث: طيب شو أكثر شي بتحبوه في المدرسة؟

« طالب 1: نتعلم فيها.

« طالب 2: نكتسب العلم.

« طالب 3: بحب المعلمين.

« الباحث: وأنت شو بتحب أكثر إشي في المدرسة يا عمر، أكثر شي بتحبه في المدرسة لما تيجي الصبح بتكون مبسوط وحابب تشوفه؟

« طالب 4: التمارين الرياضية.

« طالب 5: نتعلم.



من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».

« الباحث: شو بتحب تتعلم؟

« طالب 5: رياضيات. (مقابلة الطلاب، ص: 1)

يظهر بوضوح من إجابات الطلاب أن المدرسة كمكان ليست حاضرة عندهم، ولم يذكر أحد منهم كلمة تدل على المكان، أو أن فيها مكاناً يحبه الطلاب، ثم في سؤال آخر حاولت أن أصل إلى المكان، وستظهر هنا كيف يعتبر الطلاب أنفسهم كباراً أو أنهم ليسوا بحاجة للعب، ولا للألعاب، فهي للأطفال الصغار، وليست لهم بحسب رأيهم:

« طالب يتحدث عن طلاب يسلمون ورقة الامتحان بسرعة:

« عشان يخلصوا بسرعة أول إشي عشان يروحوا البيت.

« طالب: بروح الدار وبصير يلعب.

« الباحث: إذا هاي في ناس ما بحبو المدرسة. ليش ما يحبوا المدرسة؟ انتو قتلو بنحبها عشان تتعلم والمعرفة، ويوسف بحب التمارين الرياضية.

« طالب: عشان بكون في عندهم ألعاب، وأولاد عم بستنوا فيهم، وبصيروا يلعبوا في اللعبة، مباح كانوا يلعبوها ويكملوها.

« الباحث: طيب ليش ما بلعبو هاللعبة في المدرسة؟

« طالب: بجوز المدرسة ما فيها ... بجوز في ألعاب خرز وأشياء.

« طالب: وعشان الساحة واسعة. (مقابلة الطلاب، ص: 7-8)

« الباحث: يعني المدرسة ناقصها أشياء؟ ولا كل شي فيها موجود؟

« طالب: ناقص بس اشئ.. مكتبة لازم يكون في المدرسة مكتبة.

« الباحث: مكتبة .. شو كمان؟

« طالب: حواسيب عشان نعبر على الإنترنت ونكتسب معرفة.

« الباحث: شو حابين يكون في المدرسة غير المكتبة؟

« طالب: ألعاب ... ألعاب للأطفال الصغار، هذيك المدرسة للبنات الرابع مثلنا في عندهم ألعاب أحتي عندهم. بتقولي.

« طالب: يحطوا رمل وسحاويل للأطفال الصغار.

« الباحث: طيب للأطفال الصغار وانتو؟

« طالب: لا. (مقابلة الطلاب، ص: 11-12)

شح الموارد وقسوة المكان في المدرسة لهما أثرهما، وإذا تعقبنا ذلك الأثر سنرى كيف يخلق نوعاً آخر من الجفاف، وكيف تسيير العملية في هذا المكان، فهناك الكثير من القصص التي يمكن أن تروى في المدارس عن أثر الجفاف المتعلق بالموارد والإمكانيات بدرجة كبيرة، وينتج مستوى آخر من الجفاف، ويغذيه على مستوى العلاقات والتعلم وإنتاج التعلم، وفهم الطلاب لدورهم وحاجاتهم، والعلاقة بينهما ليست بالضرورة طردية، فحتى لو توفرت المصادر والساحات والأماكن، ليس بالضرورة أن تفعل وتكون منسجمة مع الواقع، وتنتج تعلماً، لأن الالتزام بالشكليات الظاهرة وعدم التركيز على الغاية من وجودها وأهدافها واحتياجات الطلاب النفسية والمادية، ومضمون غاية وجودها في المدرسة، سيجعلها بلا قيمة.

سأوضح ذلك من خلال رسدي لواقع المدرسة، فمثلاً: المكتبة المدرسية حاجة ضرورية وملحة ولها مشروعها المعد وأهدافها النبيلة، وتكاد لا تخلو مدرسة من وجود المكتبة، وأمين المكتبة، ولكن السؤال هنا يطرح نفسه: لماذا لا تترك المكتبة أثراً؟ لماذا لا تحقق أهدافها؟ لم أشاهد ظاهرة حب المطالعة وعشق الكتب والمكتبات وتعود الطلبة على الاستعارة والاستفادة من المكتبة والكتاب. هل ذلك يرجع إلى شكلية المكتبة، وأنها وجدت فقط لأنها يجب أن تكون موجودة؟ إذاً مكتبة كبيرة ومجهزة ولكن غير مستغلة ولا موجهة هذا نوع من الجفاف، فما بالك لو لم تكن موجودة أصلاً: هذا جفاف مضاعف.

ففي مدرسة البحث، المكتبة عبارة عن خزانتي من الرفوف يفصل بينهما جهاز حاسوب السكرتير في غرفة المدير، وتسمى ... مكتبة. على الأكثر لن يعرف الطالب ماذا تعني كلمة مكتبة، أو سيتصور الطالب أن المكتبة هي رفوف في غرفة المدير، فالطالب يعرف أن هذا الكتاب من المكتبة ولكن ما هي المكتبة؟؟ هي رفوف في غرفة المدير التي لا يدخلها الطلاب -كما رأيت- إلا للشكوى على طالب آخر، أو للمساءلة حول مشكلة تسبب بها الطالب، ورأيت كيف سيق الطلاب أحياناً إلى تلك الغرفة، وكان بعضهم يبكي، لم أشاهد كيف انتهت الحكاية، ولكن رأيت أثرها على بعضهم بعد خروجهم من تلك الغرفة في وقت لاحق.

أما المختبر، فهو مجموعة من الأدوات والمواد والأجهزة في خزانة مغلقة أيضاً في إحدى زوايا غرفة المصادر، وبحراسة مشددة، ولولا أن الخزانة لها واجهة زجاجية لن يكتشف أحد سر هذا المختبر العجيب. يدخل غرفة المصادر الطلاب الذين يذهبون لإحضار جهاز عرض الشفافيات والمستخدم بكثرة في الحصص، لدرجة أن الطلاب متعودون على وجوده عندهم كأنه سبورة، فالعلمون يستخدمون هذا الجهاز بكثرة، والبطاقات كذلك، وما لاحظته أن الطلاب معتادون على هذه الوسائل.

عصابة البرقوق ... التمرد على جفاف المكان ...

أحد الأيام، وفي وقت الاستراحة، دخل أحد المعلمين بصحبته طالب لا يتجاوز عمره ثماني سنوات إلى غرفة المدير التي عادة ما يجلس فيها المعلمون أوقات الاستراحة. كان المعلم يتكلم بصوت مرتفع مخاطباً المدير: هذا هو المسؤول عن المجموعة طلعوا يا أستاذ من الفتحة إلي في الشيك على السور ملقطين برقوق، وقال بيبيوا في أولاد المدرسة كل أربع حبات بشيكل وهي الغلة. أشار إلى بعض النقود في يده كان حماس المعلم واضحاً، ولغة جسده ونبرة صوته توحى بأنه أحبط عملية تهريب كبيرة ومهمة وألقى القبض على عصابة ارتكبت مخالفات عدة وخرقاً للقانون، منها التسلسل خارج حدود المدرسة، والسرقة، والبيع في السوق السوداء.

شعرت أن وجودي قد أثر على القضية، لم يعلق المدير، وأكمل المعلم

حديثه موجهاً إليّ يمد نحوي يده التي فيها النقود لأراها. بصراحة، لم أستطع أن أكون حيادياً أو مراقباً، وقلت له مازحاً ودون تفكير: «ردوا إليهم بضاعتهم وأموالهم أولاً». غادرت المكان بعدها مع سماع التعليقات على القصة من هنا وهناك، ولم أعرف كيف تعاملوا معهم، وكيف كانت نهاية القصة. ما لفت انتباهي في القصة هو محاولة الطالب أن يقول إنها ليست سرقة، لقد قطفوا البرقوق من شجرة في حديقة بيتهم القريب من المدرسة. وفي سرد هذه الحادثة لا أريد أن أبدو كأنني بعيد عن الواقع، وكأنني أتحدث عن قصة خيالية، أو أبدو مثالياً، ولكن جعلتني هذه القصة أفكر في أمرين أساسيين وكمشة من الأسئلة: الأول: تمرد هذه المجموعة من الأطفال وخرجهم من المدرسة وانشغالهم بأمر آخر خارج حدودها ونظامها. والثاني: إن هناك نوعين من التعلم؛ تعلم داخل صفوف المدرسة مخطط ومعد له وتابع لنظام المدرسة وقوانينها وأدوات قياسه واضحة؛ وتعلم مختلف ينتجه الأطفال ويطورونه عبر ممارسة عملية فيها نزعة من التمرد وخرق للقانون السائد، ولكنه يخدم غموضهم ويعدهم للحياة. والغريب أننا ربما نعاقبهم على هذا التعلم، كما نعاقبهم بتعلم ممل خاضع للقانون. إذاً، ماذا سيفعل الأطفال لو كان التعليم الذي تقدمه مملاً؟ ونحرمهم من تعلمهم الذي ينتجونه، بل ونعاقبهم عليه؟ لماذا لا يوجد ما يشغلهم في المدرسة؟ أليست المدرسة من أجل إعدادهم للحياة؟ لماذا تمنعهم من ممارسة الحياة؟ عندما باع البرقوق حصل على ثمن لقاء بيعه، وتعلمه ما الثمن الذي تقدمه له في التعليم ضمن القانون؟

جفاف من نوع آخر ...

في تلك الصفوف الباردة كنت أجلس قبل خمس وعشرين سنة، وما زال ذلك التلميذ الصغير يعيش داخلي إلى اليوم، حيث أراه في كل صف أدخله ما زال جالساً متمسراً خلف مقعده الخشبي لم يتحرر، وما زلت حتى اليوم أحاول تحريره بتحرير من يجلسون اليوم مكانه. ما زال صوته يحدثني عن غبار الطباشير، ولوح قاتم، ومقعد خشبي، ولا يحدثني عن جفاف المكان فقط، بل عن جفاف الأسلوب وقسوة المدرسة أيضاً. لقد كان ذكياً لماماً يحب الحرية والقصة والخيال، إلا أن تركيزه كان كيف يحصل على ذلك الخط الأحمر الذي يعني أن حله صحيح، وكلمة غريبة لا يفهم ماذا تعني تماماً، إلا أنه يعرف أنها تعني رضا المعلم عنه، وعلامة كاملة في اختبار إذا لم تكتمل كانت تبكيه هارباً إلى مكان يجلس فيه وحيداً مهزوماً على تقصيره، يتوارى عن الناس من سوء عمله.

من صف إلى صف، كانت الشهادة تزدان بالتسعينات، وكلمة نهني ذويه هارباً بها إلى البيت من حمل ثقيل وهم مستطير يسمى الامتحانات النهائية، مكتوب في كل الشهادات ولكل الطلاب، وحتى هذا اليوم النظافة والترتيب جيدان، احترام النظام جيد، وهذا مثال مصغر على ثبات الأشياء وجفافها منذ عقود. قال لي مرة إنه يتمنى أن يذهب في الصباح فيجد المدرسة قد تفجرت. كان يحب

حكايات جدته عن الغولة وحديدون وغيرهما، على ضوء خافت حكايات وسعت مداركه وغذت خياله وأشعرته بالقوة والنضوج، حيث كان التعلم مختلفاً؛ فالمكان ليس المكان، لا مقاعد ولا طبشورة، وليس مطلوباً منه أن يحفظ ويقدم امتحاناً. تشويق وإثارة ودافعية ولمسة من معلمته بحنان بيد تتخلل شعره وهو يغفو على ركبته أحياناً قبل أن تكتمل الحكاية.

لم يبتعد كثيراً وعاد معلماً لتكون المقاعد هي هي، لوح وطبشورة وقلم أحمر وكتاب مقرر ودفتر حضور وغياب، ودفتر علامات، ودفتر تحضير، ما زال الأطفال يحفظون ويرددون، وما زال الامتحان يلوح ما أن تبدأ الدراسة حتى يهبط بعد أيام أو أسابيع قليلة، وهذه هي وظيفتي كمعلم، دوري أن أنهى المنهاج، أن أقدم الامتحانات، أن يحصل طلابي على علامة عالية، أن التزم بالتعليمات والقوانين، ويشعر المعلمون بالرضا التام إذا ما قاموا بواجبهم ونفذوا حصصهم وأنهوا الكتاب المقرر، وحصل طلابهم على نسبة عالية من العلامات في الامتحانات النهائية، وبخاصة الوزارية.

« الباحث: طيب في المدرسة، أكثر إشي بتوخذه في المدرسة غير القراءة والكتابة، يعني بنوخذ حصص عربي، رياضيات، علوم، وطنية، مدنية، دين. طيب غيره شو بتعملوا في المدرسة غير الدراسة؟

« طالب: بنوخذ امتحانات.

« الباحث: امتحانات ... غير الامتحانات؟

صمت. (مقابلة الطلاب، ص: 3)

ربما يظهر هذا الجواب فهم الطلاب لدور المدرسة: قراءة، كتابة، دراسة، امتحانات. ومن المقابلات يمكننا أن نرى كيف يرى المعلمون دورهم ودور المدرسة ودور الطلاب، وكذلك كلام المشرف والمدير:

« الباحث: وهل ترى أن هناك تركيزاً على النتائج (نتائج الامتحانات الوزارية وغيرها)؟

« المشرف: أه .. في تركيز على النتائج نعم.

« الباحث: يعني التركيز على نتائج الامتحانات؟

« المشرف: نعم ... أساساً ... كل محورنا وشغلنا يكون على نتيجة الامتحان هذا طول السنة.

« المشرف: هان بجب أضيفلك بناء على نتائج الاختبارات إلبلي رح يقدموها حالياً، رح نطلب السنة الجاي من معلمين الصف الرابع على سبيل المثال إنهم يعملوا اختبار تحصيلي، للكشف عن الخبرات السابقة، عشان يعملوا خطة علاجية. (مقابلة المشرف، ص: 12).

« الباحث: الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها من خلال مكانك كمدير؟

المدير بشكل عام بظل في مخه برامج حتى يفهم الواقع إلبلي

- « طالب: حصة مرة أجو عنا العيادة بنتين صاروا يقولوا إلنا عن الأغذية ولاعبونا ألعاب .
- « الباحث: لعبتوا ألعاب معهم؟ رياضة ولا جوا الصف؟
- « طالب: جوا الصف .
- « طالب: مسابقة عن الغذاء .
- « الباحث: هاي انبسطوا فيها كثير؟ أي أحسن هاي ولا حصص الأستاذ؟
- « طالب: لأ هي .
- « طالب: الثنتين ..... عشان بنكسب المعرفة .
- « الباحث: بجوز إلورأي ثاني . هي أحسن ولا حصة الأستاذ؟
- « الطالب: لأ الحصة هذيك أحسن، لانا انبسطنا فيها كلنا ... وكلنا أخذنا ... (مقابلة الطلاب، ص: 8)

وفي كل الاقتباسات المتنوعة السابقة يظهر التركيز على توصيل المعلومة، وعلى نتائج الامتحان ليظهر في مقابلة الطلاب التي وردت في آخر الاقتباسات أنهم لم يتذكروا حصة واحدة شعروا فيها بالمتعة والتشويق أثناء تعلمهم، لا أعرف السبب، ولكن الشيء الوحيد الذي تذكره هو زيارة من العيادة كانت مختلفة، لعبوا فيها، وتعلموا، فعلقت في ذاكرتهم، وهذا الكلام لا ينفي أن حصصهم يتعلمون منها، وأنهم معجبون بها، ولكن برأيهم حصص المعلم ليست للعب حين قال الطالب: الثنتين .. عشان بنكسب المعرفة. فهو معجب بحصة العيادة، ومعجب بحصة المعلم، في الأولى لعب وفرح، وفي الثانية اكتسب المعرفة.

### سلة المهملات ...

في إحدى الحصص للصف الرابع لاحظت شيئاً مختلفاً في سلوك الطلاب، حين اكتشفت أن سلة المهملات تعني لهم شيئاً مختلفاً، فأنا كمعلم أعرف أن سلة المهملات في الصف لرمي النفايات، وبري الأفلام، وربما تستخدم أحياناً للعقاب، حين يطلب من أحد التلاميذ أن يقف في الزاوية عندها، لكن ما لاحظته في هذا الصف أن السلة تحمل معنى مختلفاً، فخلال الحصة كان الطلاب يتوافدون إليها، وفي فترات مختلفة، وكأنها مكان للنزهة، وتضييع الوقت حتى أن طالباً وقف عندها يأكل حبات البزر، ويبدو عليه عدم الاكتراث أو القلق من أن يراه المعلم، كنت أعرف أن هذا التصرف تجاوز لأكثر من قانون، فالبزر ممنوع بيعه في مقصف المدرسة، فكيف إذا كان في الحصة ووقت الدرس. وقد نبهني هذا الموقف إلى الفجوة الموجودة بين تفكيرنا كمعلمين وتفكير الأطفال، فالأطفال هنا ينظرون إلى سلة المهملات بشكل مختلف عن زاوية النظر التي ننظر منها، فكم هي الأشياء التي يمكن أن نصنفها مع سلة المهملات، بمعنى كم نحن بعيدين عن فهم طلابنا وحاجاتهم وتوجهاتهم؟ وما هو حجم الانسجام المتبادل بيننا كمعلمين وطلاب وتعاوننا في السير نحو الهدف المنشود؟ كيف يفهم المعلم ويفسر تصرفات طلابه وحاجاتهم؟ وكيف يفهم

- بعيشه، أي مدير بسعي إنها تكون المؤسسة إللي بعيش فيها ناجحة، خاصة إحنا في التربية والتعليم. يعني أقصى ما يملك المدير إنه يجيب جيل ناجح علمياً. (مقابلة المدير، ص: 3)
- « المدير: بشوف إنه الشارع أقوى من المدرسة، بظل قضية التعليم إذا أنت كمدرسة مش قادر تضبط الطالب، مش قادر تضبطه أبسط البسيط ترسب الطالب التيس، ترسبه، ع مستوى النتائج، وخاصة الصفوف الكبيرة. إذا أنت ما علمته ما علمته. (مقابلة المدير، ص: 4)
- « معلمة: أنا بحس وأنا جاي إنه في مسؤولية في مادة بحس إنه لازم أفرغها، أعطيتها للطلاب، بحس هدي هيك إنه أعطي معلومات أعطي ... (مقابلة معلمة، ص: 3)
- « معلم يتحدث عن مهنة التعليم: أنا في نظري مهنة التعليم مقدسة يقدم فيها الواحد واجب وطني، وإرضاء الله سبحانه وتعالى في البداية. مئة بالمئة والله بدون مجاملة أنا راضي عن المهنة.
- « الأسباب التي تجعله راضياً عنها: بشعر إني أنا ببني أجيال، وبقدملها للطلاب، بحب أقدملهم يعني شو ما أعطيهم بشعر حالي إني لحد الآن لازم أعطي أكثر، يعني في نهاية كل سنة بشوف إذا الأولاد وصلوا إنه الولد ابن الصف الثاني قادر على القراءة والكتابة، أنا داخليا بشعر إني مرتاح، وارتياح كبير جدا إنه الولد يستطيع يقرأ ويكتب بشكل سليم، هذا الإشي إللي بخليني أشعر بارتياح. (مقابلة معلم، ص: 1-2)
- « معلم: أقلك .. أنا لو باخذش راتب باجي أدرس؟ بجيش أدرس، أنا لو إني شايف إسرائيل فاتحة باجي بدرس؟ والدليل خمسين بالمية من عمال إسرائيل التحقوا في جامعة القدس المفتوحة، هاي هم بحكوا عن تسكير المستوطنات. (مقابلة معلم، ص: 8)
- « الباحث: طيب بدي تحكولي عن حصة هلا ما تحكوا أي أستاذ بس مثلاً حصة انبسطوا فيها، وما حبيتوا، هاي الحصة تنتهي. رن الجرس، وقتلوا يا الله ليش رن الجرس؟ خليك يا أستاذ أعطينا كمان حصة.
- « طالب: حصة العربي .
- « الباحث: شو صار، ليش انبسطت فيها، وما حبيت تنتهي؟
- « الطالب نفسه: لأنه أنا يوم اطلعت على اللوح رن الجرس بقيت بدي أكتب، صرت أقول للأستاذ أعطينا أخرى حصة.
- « الباحث: عشان تكتب؟
- « الطالب: أه .
- « الباحث شو تكتب يعني كنت تحل إشي ولا خط كتابة؟
- « الطالب: لا، أحل إشي تدريبات كنت غايب، وأطول، وتخلص الحصة.
- « الباحث: طيب أنا قصدي غير إللي حكيت، قصدي يعني حصة جميع الصف، كنا مبسوطين فيها لأنه الأستاذ عمل هاي الشغلة، انبسطنا، وما حبيتنا الحصة تخلص، شو شفتوا أشياء في حصة منيحة؟

الطلاب أهداف معلمهم ودوره ودور مدرستهم؟ وأخيراً ما علاقة هذا التصرف بدافعية الطلاب وانخراطهم في الحصة؟

شدني منظر هذا الطالب الذي يرتدي زي الكشاف وأسميته الطالب المدلل، فهو في المقعد الأول، ويساعد المعلمين في نقل الأغراض والمناوبة، كما أنه يبدو عليه أنه لا يقلق من أن يعامله معلم بقسوة، فهو يتفحص الوسائل على طاولة المعلم، ويتحرك في الصف كثيراً، فكرت بموضوع الطبقيّة في الصف، وكيف يقوم المعلم مرات بالاهتمام بطالب ما على حساب طالب آخر، فيكون الطالب الذكي والمدلل الذي يساعد المعلم ويحجب عن الأسئلة دائماً وينال الرضا والاستحسان من المعلم، وهذا الطالب يمثل النظام في المدرسة، حيث يسير كما يريد المعلم. هكذا كان تفكيري حين صنفته في دائرة المدللين، وأن هناك صنفاً آخر من الطلاب في قائمة المتمردين على النظام الذين يشعرون بخيبة الأمل من تعامل المعلمين معهم، فهم في نظرهم غير مهتمين، وغير أذكياء، ولا يمكنهم عمل شيء في الحياة، فلا يبدون اهتماماً بالمدرسة، ويصدقون أنهم لا فائدة من وجودهم، فيجلسون صامتين مقتنعين أنهم لا يقدرّون على شيء، وقد ذكرهم طالب ذكي في المقابلة قائلاً: مرات أبو عادل (الأذن) بخلي الأولاد إल्ली مش شاطرين يدهنوا عشان يتعلموا. وكان سياق الحديث عن الأشياء التي يحبها الأولاد في المدرسة. وفي الحصة كنت قد صنفت هذا الطالب الذي تحدث من المدللين، وشعرت من كلامه هذا أنه على الرغم من كونه مدللاً، إلا أنه يحسد هؤلاء الطلاب الذين وصفهم بقوله (مش شاطرين) لأنهم يعملون في الدهان، وهو من الطلاب الأذكياء الذين يحصلون على علامات عالية ولا يدهنون.

وذهابي في هذا الاتجاه من التصنيف جعلني أفكر كيف نرى الطالب؟ وكيف نرى دور الطالب؟ وهل ندرك حاجاته وميوله؟ فبعضنا يرى الطالب كوعاء لا بد من ملئه، وبعضنا يرى الطالب كصفحة بيضاء نكتب عليها ما نريد. بعضنا يراه كنبته صغيرة بحاجة للرعاية والاهتمام. فلكل معلم نظرتة ورؤيته، ولكن ما أتساءل عنه: لو كان الطالب وعاء أو نبته أو صفحة، فهو في كل الحالات شيء عاجز لا يملك من أمره شيئاً، وعلى المعلم أن يحشوه بالمعلومات. أم أن المعلم يمكن أن يرى الطالب كشريك أو كشيء آخر لا أدري ما يكون، ربما أن أرى الطالب كإنسان لديه قدراته ومواهبه ومهاراته التي علي أن أمكنه من امتلاكها وأساعده إلى الوصول إليها. هذا التفكير قادمي إليه شيء ما حين تعلمت خلال البحث أن لا أنظر إلى الطالب كشيء ما إلا بعد أن أفهم الطالب وأعرف عنه كل شيء، فكما ذكرت سابقاً أنني قمت بتصنيف الطلاب هذا مدلل، وهذا غير مدلل، وأتساءل لماذا يتعامل المعلمون مع نخب من الطلاب بطريقة تختلف عن الآخرين؟ وانهارت كل تصنيفاتي حين تعلمت شيئاً قادتني إليه الصدفة، ربما يكون شيئاً استثنائياً أو خاصاً، إلا أنه جعلني أعيد

التفكير، وتعلمت أن لا أصنف الطالب، أو أنظر إليه نظرة ما، إلا بعد أن أعرفه. كل هذا التفكير جاءني بعد أن اكتشفت أن أحد الطلاب المصنفين في قائمتي من المدللين كان يتيم الأم. ففكرت أنه يجب أن يكون مدللاً. وشعرت بالذنب لأنني لم أفهمه جيداً، وأحسست برغبة في أن أذهب إليه وأعتذر عن فكرتي عنه، وانبني ضميري جداً مع أنني لم أضره بكلمة أو نظرة حتى. فقط لأنني كنت قد فكرت فيه بطريقة مختلفة. لقد كان يستحق كل الاهتمام من المعلمين. وكنت أتحدث مع شخص حول البحث عن هذه القصة التي تأثرت بها جداً، وكنت قاسياً على نفسي حين استوقفتني كلامه قائلاً إنها حالة واحدة، وحالة إنسانية، أتفهم موقفك منها، وأعرف أهميتها، ولكن بالعودة إلى المدللين والمهملين... ماذا لو كان في الصف طفل يتيم، ولكنه من قائمة المهملين يجلس وحيداً في الدرج الأخير!؟



من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».

## عداد (التاكسي) والمقود ... الشكل والمضمون

في أحد الأيام التي كنت أعمل فيها على البحث، عدت من رام الله إلى قريتي في سيارة ركاب صغيرة، ومعني بعض الأصدقاء في الطريق. كان عداد التاكسي المخصص لتسجيل الثمن لا يعمل، وكان غير مثبت مكانه بشكل جيد، وكلما انحنت بنا السيارة على منعطف صعب، سقط العداد من مكانه، وانشغل السائق بإعادته وتثبيتته، حاولت مساعدته وأعدته مرة إلى مكانه، وسالت السائق لماذا تضعون هذا العداد ولا تستعملونه؟ ارمه من الشباك وأرح نفسك. ضحك السائق وقال: هذا العداد ليس له فائدة إلا أن القانون يحتم علينا أن يكون موجوداً، وإلا تعرضنا للمخالفة، المهم أن يكون موجوداً. قلت للسائق: إن حياتنا مليئة بمثل هذه العدادات. ربما لم يدرك السائق ما قلته تماماً، ولكنه وافقني الرأي. أما أنا فأخذني هذا الحوار إلى البحث وإلى المدرسة وإلى عملي كمعلم، ورحت أحصي العدادات التي يمكن أن أجدها في مدرستي، فهل هناك في المدرسة أشياء مثل هذا العداد لا تعمل وليس لها فائدة والمهم أن تكون موجودة؟ هذا السؤال أطره على أي إنسان له علاقة بالتعليم والمدرسة، هل نفكر بمضمون الأشياء أم بشكلها فقط أم أننا نسير نحو إهمال الشكل أيضاً لا اعرف؟ ولكن ما أعرفه الآن أن عملي على البحث قد أصابني بهوس البحث والتحليل والمقارنة بين الأشياء. وحتى لو انتهيت من العمل على البحث، لن ينتهي البحث من العمل عليّ وفيّ ومني. ومن صور هذا الهوس أن أسئلة البحث تطاردني، في كل مكان أسأل دائماً، وأحلل، وأدس أنفي في كل شيء، ما جعلني أخشى على نفسي كوني معلماً من اهتمامي بكل التفاصيل، وأصبحت أحاول جاهداً إمساك العصا من الوسط، والموازنة بين الأمور، وأن أقوم بعملية بقدر ما أستطيع وأواجه كل الصعوبات، وأكمل المشوار الذي بدأت ساعياً إلى تطوير نفسي وخبرتي. وهذا يضعني في موقف صعب، فكيف سأتعامل مع الأشياء والأمور التي أعتقد أنها غير مجدية في مهنتي (عدادات) وفي الوقت نفسه علي القيام بها، وإلا حصلت على (مخالفة).

وأنا بين خيارات عدة؛ إما أن أتمرد وأصطدم بالواقع، وفي ذلك استنزاف لطاقتي وجهدي؛ وإما أن أجعل من وقتي شيئاً للقيام بالأمور الروتينية حتى لو كنت غير مقتنع بها، وأعمل بجد على المضمون، لأنني لو استسلمت للواقع وللضغوط سأقوم بالشكليات فقط، وهذا ما يدفع التعليم ثمنه، فيمكنني أن أجهز دفتر التحضير، وأرصد العلامات وأحتفظ بملف لأوراق الامتحانات، وآخر لأوراق العمل، أعد لوحات للصف وبعض الوسائل، وأنهى المنهاج. وحين يزورني المشرف، استخدم الوسائل في الحصة، وأضع فيها كل طاقتي. هل بقي شيء آخر حتى أكون معلماً مميّزاً لا يرتكب المخالفات؟ مع أن المخالفة ليست مهمة أيضاً، فهي شكلية، فما الفرق بين معلم حصل على تقدير ممتاز ومعلم حصل على تقدير ضعيف؟ وما تبقى يعود إلى انضباطي الذاتي وأخلاقي وأمانتي، وليس عليّ رقيب إلا الله فيما يتعلق بالمضمون، وهو الشيء الأهم والأجدر أن أساءل فيه، وأتابع،

وأراقب كل صغيرة وكبيرة. أو هناك خيار آخر ربما تقودني الظروف إلى التوقف عن التعليم، والبحث عن مكان يمكنني فيه ممارسة معتقداتي في التعليم، والتعبير عنها، ليس في واقع عملي، وإنما في كتاب أو بحث. وما يظهر هنا أن المعلم نفسه يمكنه أن يؤدي أدواراً مختلفة، بعضهم يتنقل بينها، وبعضهم الآخر يستقر على أمر ما ويلتزم به على مدى سنوات عدة. ولكل منها منتج وتأثير خاص على طلابه، وبعضهم يقدم ما يطلب منه النظام بدقة، وإن تعارض مع حاجاته وحاجات طلابه، وبعضهم يتبع حاجاته وحاجات طلابه، وإن تعارض ذلك مع النظام، وبعضهم يوازن بين الأمرين، فيقوم بما يرضي النظام ويرضي نفسه وطلابه، وبعضهم لا يرضي النظام ولا يرضي طلابه. إن كل القوانين والآليات والإصلاحات التي وجدت في النظام التعليمي هي من أجل الطالب، فلماذا تشغلنا هذه الأشياء عن الاهتمام به؟!

وهذا ما يأخذني إلى لفت الانتباه إلى أمر مهم وخطير في المدرسة، وهو الشكل والمضمون، حيث يمكننا بسهولة ضبط الشكل ومراقبته، ويمكننا بسهولة الإبداع في الشكل وإنجازها، ولكن المضمون أمر خفي بعض الشيء، تظهر نتائجه على فترات متباعدة، ولا يمكننا تتبع العمل على المضمون بسهولة، إنما نرى أثره ونتائجه، وعلى سبيل المثال: لو رأينا صفاً يحب المطالعة ويحب الكتب، مثقف، ويعرف أسماء الكثير من الكتب، ويروي الكثير من القصص، وعنده خبرة في البحث واستخدام المكتبة، سنكتشف بسرعة وسهولة إن هذا نتيجة اهتمام المعلم بمضمون وجود المكتبة وأهدافها، حتى لو كانت رفين في غرفة ضيقة. بالمقابل لو كانت مكتبة كبيرة مليئة بأنواع الكتب والقصص والروايات ومختلف الموسوعات والكتب العلمية والتاريخية والدينية، وغيرها، وللمكتبة لجنة من الطلبة، وأمين للمكتبة، وأيام لاستعارة الكتب، وكل شيء منظم، ولا نرى اهتماماً من الطلاب بالكتب، وليس هناك تفعيل لدورها، فستكون شكلية فقط. ففي السيارة مقود وعداد. للمقود عمله وللعداد عمله، وكذلك في المدرسة هناك أمور تشبه المقود في أهميتها، وهناك أشياء كالعداد، فهل سنعمل على الشكل فقط أم سنبحث في المضمون؟ أعتقد أنه بإمكاننا أن نمتلك الخيارين ونعمل بهما، وأن نركز على مضمون العملية التربوية والتعليمية ومضمون وجودنا في المدرسة وأهدافنا من تعليم أطفالنا مضموناً مرتبطاً ومتوازياً ومقدماً في شكل راق أيضاً وفعال. حين نجعل من الشكل آليات وأدوات فعالة لها دورها ولها أهدافها، تغذي المضمون، وتهتم به، وأن نحمي وندعم المعلم الذي يمسك بهذا المقود، ونعزز اهتمامه بالمقود بالعداد ... المعلم ... الذي يقود أجيالنا إلى مستقبلهم، فيما أن يتمسك بالمقود بكل تركيزه، أو ينشغل بالعداد حتى يبقى مكانه ولا يتعرض للمخالفة ... حينها أخشى ما أخشاه أن نتعرض لحادث خطير.

معتصم أطرش

مدرسة جلعليا الأساسية المختلطة - رام الله